

مجموعة رسائل الشيخ
عبد الله بن زيد آل محمود

رحمه الله تعالى

المجلد الخامس: أحكام الأضحية ورسائل أخرى

(٥)

الغناء وما عسى أن يقال فيه

من الحظر أو الإباحة

الطبعة الثالثة - الدوحة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

طبعة جديدة بصف وإخراج جديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

- ١ الفهرس
- ٢ الغناء وما يقال فيه
- ٢ أحاديث الحظر
- ٣ أحاديث الإباحة
- ٥ خلاف العلماء في مسألة سماع الغناء والمعازف وأدلتهم
- ٦ [سؤال عن قول عمر رضي الله عنه: الغناء زاد المسافر . والجواب عنه]
- ٢١ حديث ليلي الأخيلىة مع الحجاج بن يوسف

الغناء وما يقال فيه

لقد اختلف العلماء في سماع الغناء وآلات اللهو قديماً وحديثاً وأكثروا القول فيه بل كتبوا فيه المصنفات، واستقصوا الروايات، ونحن نذكر أقوى ما ورد من الأحاديث في هذا الباب، ثم ملخص اختلاف العلماء وأدلتهم، ثم ما الحق الجدير بالاتباع.

أحاديث الحظر

- ١- «عن عبد الرحمن بن غنم قال: حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري أنه سمع النبي ﷺ يقول: لِيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَّ وَالْحَرِيرَ وَالْحَمْرَ وَالْمَعَارِفَ». أخرجه البخاري بهذا الشك بصورة التعليق وابن ماجه من طريق ابن محيريز عن أبي مالك بالجزم.
- ٢- «عَنْ نَافِعِ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ صَوْتَ زَمَّارَةٍ رَاحَ فَوَضَعَ أُصْبُعِيهِ فِي أُذُنَيْهِ وَعَدَلَ رَاحِلَتَهُ عَنِ الطَّرِيقِ وَهُوَ يَقُولُ يَا نَافِعُ أَسْمِعْ فَأَقُولُ نَعَمْ. فَيَمْضِي حَتَّى قُلْتُ لَا فَوَضَعَ يَدَيْهِ وَأَعَادَ رَاحِلَتَهُ إِلَى الطَّرِيقِ وَقَالَ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَسَمِعَ صَوْتَ زَمَّارَةٍ رَاحَ فَصَنَعَ مِثْلَ هَذَا». رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، قال أبو علي اللؤلؤي: سمعت أبا داود يقول: وهو حديث منكر.
- ٣- «عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْحٌ وَقَذْفٌ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَتَى ذَلِكَ قَالَ «إِذَا ظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَارِفُ وَشَرِبَتِ الْخُمُورُ». رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب.
- ٤- «عَنْ أَبِي أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَهَدَى لِلْعَالَمِينَ وَأَمَرَنِي أَنْ أَحَقِّقَ الْمَزَامِيرَ وَالْكَبَارَاتِ - يَعْنِي الْبَرَاطِطَ - وَالْمَعَارِفَ وَالْأَوْثَانَ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ فِي

الجَاهِلِيَّةِ». رواه أحمد عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن. قال البخاري: عبيد الله بن زحر ثقة، وعلي بن يزيد ضعيف. وقال أبو مسهر في عبيد الله بن زحر: إنه صاحب كل معضلة. وقال يحيى بن معين: إنه ضعيف. وقال مرة: ليس بشيء. وقال ابن المديني: منكر الحديث. وقال ابن حبان: يروي موضوعات عن الأثبات، وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطامات.

٥- عن ابن مسعود: «الْغِنَاءُ يُنْبِتُ التَّفَاقُ فِي الْقَلْبِ». رواه أبو داود مرفوعاً والبيهقي مرفوعاً وموقوفاً. وفي إسناده شيخ لم يسم، وفي بعض طرقه ليث بن أبي سليم وهو متفق على ضعفه كما قال النووي، وقال الغزالي: رَفَعَهُ لا يصح. ومعناه أن المغني ينافق لينفق. وقد زدنا هذا وما قبله إتماماً للبحث.

وقد رأيت أنه لا يصح من هذه الأحاديث إلا الأول، وستعلم مع ذلك ما قيل في إعلاله، وما رُوي غيره أو هي منه، إلا أثرًا عن ابن مسعود في تفسير اللهو فقد صححه ابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي.

أحاديث الإباحة

١- «عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تُغْنِيَانِ بَغْنَاءَ بُعَاثَ، فَاصْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ وَحَوَّلَ وَجْهَهُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَنْتَهَرَنِي، وَقَالَ مِرْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «دَعُهُمَا يَا أبا بَكْرٍ فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ». وفي رواية: «يَا أبا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا». فَلَمَّا غَفَلَ عَمَزَتْهُمَا فَخَرَجَتَا، تقول: لما غفل أبو بكر». رواه البخاري في سنة العيد، وفي أبواب متفرقة، ومسلم في العيد، والنسائي في عشرة النساء، وإنما أنكر أبو بكر لظنه أن النبي ﷺ كان نائمًا لم يسمع.

٢- «عن خالد بن ذكوان عن الربيع بنت معوذ قالت دخل على النبي ﷺ غداة بُني على، فجلس على فراشي كمجلسك مني، وجويريات يضربن بالدف، يندبن من قتل من أبائهن يوم بدر حتى قالت جاريةً وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال النبي ﷺ «لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين»». رواه أحمد والبخاري وأصحاب السنن إلا النسائي.

٣- «عن محمد بن حاطب الجمحي قال قال رسول الله ﷺ «فصل بين الحلال والحرام الدف والصوت في التكاثر»». رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم.

٤- «عن عامر بن سعد قال: دخلت على قرظة بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس وإذا جوار يعنين فقلت أنتما صاحبا رسول الله ﷺ ومن أهل بدر يفعل هذا عندكم فقال اجلس إن شئت فاسمع معنا وإن شئت اذهب قد رخص لنا في اللهو عند العرس». أخرجه النسائي والحاكم وصححه.

٥- «عن بريدة قال: خرج رسول الله ﷺ في بعض معازيه فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت يا رسول الله إني كنت نذرت إن ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى. فقال لها رسول الله ﷺ «إن كنت نذرت فاضربي وإلا فلا». فجعلت تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل علي وهي تضرب ثم دخل عثمان وهي تضرب ثم دخل عمر فألقت الدف تحت استنها ثم قعدت عليه. فقال رسول الله ﷺ «إن الشيطان ليخاف منك يا عمر إني كنت جالسا وهي تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل علي وهي تضرب ثم دخل عثمان وهي تضرب فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف»». رواه أحمد والترمذي وصححه وابن حبان والبيهقي.

خلاف العلماء في مسألة سماع

الغناء والمعازف وأدلتهم

في الباب أحاديث أخرى وما أوردناه هو أصح ما ورد فيه مما يحتج به، وأحاديث الحظر التي تقدمت تحظر المعازف وهي آلات اللهو، والدف منها قطعاً، وغناء القيان وهن الجوارى المغنيات، وقد رأيت في أحاديث الإباحة إباحة العزف بالدف وغناء الجوارى وانعقاد نذره، ومما ينبغي الالتفات إليه أن كلام أبي بكر وكلام عامر بن سعد يدلان على أن الناس كانوا يتوقعون حظر السماع واللهو لا سيما أصوات النساء، لولا النص الصريح بالرخصة، وتكراره في الأوقات التي جرت عادة الناس بتحري السرور فيها، كالعيد والعرس وقدم المسافر، فأحاديث الإباحة مرجحة بصحتها، وضعف مقابله ونكارتة، وبكونها على الأصل في الأشياء وهو الإباحة، وبموافقتها ليسر الشريعة وسماحتها وموافقتها للفطرة، وهذا لا ينافي أن الانصراف الزائد إلى اللهو والإسراف فيه ليس من شأن أهل المروءة والدين، ولهذا رأيت كثيراً من الأئمة العلماء الزهاد قد شدد النكير على أهل اللهو لما كثر وأسرف الناس فيه عندما عظم عمران الأمة واتسعت مذاهب الحضارة فيها، حتى جاء أهل التقليد من المصنفين فرجحوا أقوال الحظر وزادوا عليها في التشديد، حتى حرم بعضهم سماع الغناء مطلقاً، وسماع آلات اللهو جميعها، إلا طبل الحرب ودف العرس، وزعموا أنه دف مخصوص لا يُطرب، وأنه غير دف أهل الطرب، وهاك أجمع كلام يحكي خلاف علماء الأمة وأدلتهم في هذه المسألة باختصار، وهو كلام الشوكاني في نيل الأوطار، قال بعدما أورد ما تقدم من أحاديث الحظر:

وقد اختلفَ في الغناء مع آلة من آلات الملاهي وبدونها، فذهب الجمهور إلى التحريم مستدلين بما سلف، وذهب أهل المدينة ومن وافقهم من علماء الظاهر وجماعة من الصوفية إلى الترخيص في السماع ولو مع العود واليراع، وقد حكى الأستاذ أبو منصور البغدادي الشافعي في مؤلفه في السماع أن عبد الله بن جعفر كان لا يرى بالغناء بأساً، ويصوغ الألحان لجواريه،

ويسمعها منهن على أوتاره، وكان ذلك في زمن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه. وحكى الأستاذ المذكور مثل ذلك أيضاً عن القاضي شريح، وسعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، والزهري، والشعبي.

وحكاه صاحب الإمتاع عن أبي بكر بن العربي، وجزم بالإباحة الأذفوي، هؤلاء جميعاً قالوا بتحليل السماع مع آلة من الآلات المعروفة، وأما مجرد الغناء من غير آلة فقال الأذفوي: إن الغزالي في بعض تأليفه الفقهية نقل الاتفاق على حله، ونقل ابن طاهر إجماع الصحابة والتابعين عليه، ونقل التاج الفزاري وابن قتيبة إجماع أهل المدينة عليه، وقال الهاوردي: لم يزل أهل الحجاز يرخصون فيه في أفضل أيام السنة المأمور فيها بالعبادة والذكر.

[سؤال عن قول عمر رضي الله عنه: الغناء زاد المسافر . والجواب عنه]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سؤال وجه إليّ عن قول عمر رضي الله عنه: الغناء زاد المسافر. هل هذا القول صحيح عنه أو غير صحيح؟ والجواب يُعرف مما يلي:

إننا لسنا من المقلّدين لأحد في قول يقوله ويرتضيه وإنما نبحت عن الحق في مظانه ثم نقول به، وقول عمر هذا: الغناء زاد المسافر. لم نقف على سنده، وعلى فرض صحته أو عدم صحته فإن الغناء للمسافر مباح وليس بحرام، بل الغناء كله مباح للمسافر وغير المسافر، وضرب الطبل عليه كله مباح، إلا إذا صدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، أو شجع على انتهاك المحرمات أو شرب المسكرات، وما عدا ذلك فإنه مباح بلا شك، لأنه من لهو الدنيا الذي ذكره الله في كتابه بقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠]. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١]. وهذا اللهو الذي ذكره الله هو أن دحية بن خليفة الكلبي لما قدم بالعين من الشام أخذوا يضربون بالدف ليعلموا الناس بوصول العير.

وقد قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: إن الناس في مزاوتهم للأعمال الثقيلة يتروحون بالغناء ويستريحون به، لكونه يخفف عنهم الآلام ويلطف لهم المشاق العظام، حتى إنه ليسيهم الشراب والطعام، كما قيل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد

لها بوجهك نور تستضيء به عند المسير وفي أعقابها حادي

إذا اشتكت من كلال السير أو عدها روح القدوم فتحيا عند ميعادي

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم عند بنائهم لمسجد النبي ﷺ يغنون ويرتجزون بقولهم:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينتنا علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى لقد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

يرفعون بذلك أصواتهم أبينا... أبينا. وأحياناً يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

ورسول الله يجيهم بقوله:

«اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاعْفِرْ لِلْأَنْصَارِ، وَالْمُهَاجِرَةِ».

وهذا ليس بشعر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: 69].

وإنما هي كلمة جرت على لسانه لم يقصد بها شعراً، ومن شرط الشعر أن يكون مقصوداً. ومثله قوله: «هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِضْبَعُ دَمِيَّتٍ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَتْ».

فقول عمر رضي الله عنه: إن الغناء زاد المسافر. ليس بإثم، ورسول الله كان له حادٍ يحدو بالإبل - أي يُغني بها لتنشط - فهذا وأمثاله مباح بلا شك، وكان عبد الله بن رواحة يحدو بالجيش عند دخول رسول الله ﷺ مكة ويقول في حدها:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقلبه ويذهل الخليل عن خليله
يا رب إني مؤمن بقلبه

وجاءت امرأة إلى عمر رضي الله عنه في خصومة فقال لها:

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين
فقال له المرأة: لا، إن الشاعر لم يقل بهذا وإنما قال:

إن النساء رياحين خلقن لكم فكلكم يشتهي شم الرياحين
وكان رضي الله عنه يعس بالمدينة بالليل فسمع امرأة تشد وهي تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأزقني الأخليل الأعبه
الأعبه طوراً وطوراً كأنما بدا قمرًا في ظلمة الليل حاجبه
فوالله لولا الله لا رب غيره لحرك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يصونني وحفظاً لبعلي أن تُنال مراكبُه

إن بعض الملوك يولعون بمحبة الغناء وضرب الدف عليه خاصة في السمر بالعشاء، وعن
نسب إليه ذلك هارون الرشيد، ويترجح عندي أن إلصاق هذه التهمة به ليست بصحيحة ولا
صريحة، لكونه قد قسم الزمان شطرين: عام للغزو وعام للحج، وما كان كذلك فإنه يبعد أن
يشغل بالغناء الذي هو معدود من الفضول، وعلى فرض صحة نسبته إليه فإن هذا من اللهو
اليسير الذي لا يتمحض لإحباط حسناته، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة.

وفي فتح مكة لما قدم رسول ﷺ خرجت النساء والرجال والصبيان وجعل النساء يصرخن
ويكيبن خوفاً على أزواجهن وأولادهن، وكن يضربن وجوه الخيل بخمرهن، فقال رسول الله ﷺ
عند ذلك لأبي بكر: هل قال حسان في مثل هذا شيئاً؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: «ما قال؟»
فأنشد:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تشير النقع موعدها كداءً

ينازعن الأعتة مصغياتٍ على أكتافها الأسل^(١) الظماء
تظل جياننا متمطرات يُلطمهن بالخمر النساء

وقد اشتهر أهل المدينة بمحبتهم للغناء كما حكاه عنهم أبو الفرج الأصبهاني، وكانوا كثيرًا ما يتغنون بشعر جبلة بن الأيهم الغساني لكونه من الحنين إلى الوطن؛ لأن أكثر المغنيات هن من السبايا، وقصة جبلة بن الأيهم هي أن الغساسنة وهم ملوك الشام في قديم الزمان، لكنهم كانوا تحت سلطة النصارى، ولما تدفقت جحافل الصحابة على بلاد الشام ومصر والعراق وسائر البلدان وأجلوا النصارى، دخل جبلة بن الأيهم في الإسلام علانية فحجج زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعند الطواف بالبيت وطئ إزاره رجلٌ من بني فزارة فانحل، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزاري، فشكاه إلى عمر، فقال له عمر: ما حملك على ذلك؟ القصاص بينكما. فقال له جبلة: أيقصص من الأشراف للسوقة؟ فقال له عمر: نعم، ساوى بينكما الإسلام. فقال: أمهلني حتى أعود. فقال: قد أمهلتك؟ فقام جبلة وأمر أصحابه بأن يشدوا على رحالهم، ورجع إلى بلده ففعلوا، فترك الحج عام ذلك، فندم أشد الندم وأنشد أبياته الشهيرة وهي:

تَنصَّرَتِ الأَشْرَافُ مِنْ عَارِ لَطْمَةٍ وَمَا كَانَ فِيهَا لَوْ صَبْرَتْ لَهَا ضُررٌ
تَكْتَفِنِي مِنْهَا لَجَاجٌ وَنَخْوَةٌ فَبَعَتْ بِهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعُورِ
فِي أَلَيْتِ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي وَلَيْتَنِي ثَوَيْتِ أَسِيرًا فِي رُبَيْعَةٍ أَوْ مَضْرُ
وَيَا لَيْتَنِي أَرَعَى الْمَخَاضَ بِقَفْرَةٍ أَجَالِسُ قَوْمِي بِالْعَشِيَّاتِ وَالْبَكْرِ
وَيَا لَيْتَ لِي بِالشَّامِ أَدْنَى مَعِيشَةٍ أَجَالِسُ قَوْمِي عَادِمِ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ
أَدِينُ بِمَا دَانُوا بِهِ مِنْ شَرِيعَةٍ وَلَمْ أَنْكَرِ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَ لِي عَمْرُ

ولما بلغ عمر هذه الأبيات وجّه إليه رجلاً من أصحابه وهو جثامة بن مساحق الكناني، فلما

انتهى إليه الرجل بكتاب عمر أجاب إلى كل شيء سوى الإسلام^(١).

(١) قال الرجل فتوجهت إليه فلما انتهيت إلى بابه رأيت من البهجة والحسن والسرور ما لم أر بباب هرقل مثله، فلما سلمت ردّ السلام ورحّب بي وألطفني ولامني على تركي النزول عنده، ثم أقعدني على شيء، لم أثبتته، فإذا هو كرسي من ذهب فانحدرت عنه فقال: ما لك؟ فقلت: إن رسول الله ﷺ نهي عن ذلك. فقال جبلة أيضاً مثل قولي في النبي ﷺ حين ذكرته وصلى عليه، ثم قال: يا هذا إنك إذا طهرت قلبك لم يضرك ما لبسته ولا ما جلسك عليه. ثم سألتني عن الناس وألحف في السؤال عن عمر، ثم جعل يفكر حتى رأيت الحزن في وجهه فقلت: ما يمنعك من الرجوع إلى قومك والإسلام؟ قال: أبعد الذي قد كان؟ قلت: قد ارتد الأشعث بن قيس ومنعهم الزكاة وضرهم بالسيف ثم رجع إلى الإسلام، فتحدثنا ملياً ثم أوماً إلى غلام على رأسه فوّلني يحضر، فما شعرت إلا بعشر جوار يتكسرون من الحلي ثم قال للجواري: أطربيني، فخفقتن بعيداً عنهن يغنين:

لله دَرٌ عصابة نـادمتهم	يوماً بجَلَّتْ في الزمان الأول
بيض الوجوه كريمة أحسابهم	شُمّ الأنوف من الطراز الأول
يغشون حتى لا تهرّ كلابهم	لا يسألون عن السواد المقبل

فاستهل واستبشر وطرب ثم قال: زدنا فاندفعن يغنين:

لمن الدار أفقرت بمعان	بين شاطئ اليرموك فالصمان
فحمى جاسم فأودية الصفر	مغنى قبائل وهجان
فالقريات من بلاس فداريـ	يا فسكاء فالقصور الدواني
ذاك مغنى لآل جفنة في الدهـ	ر وحق تعاقب الأزمان
قد دنا الفصح فالولائد ينظمـ	من سراعاً أكلة الممرجان
لم يعللن بالمغافير والصمـ	غ ولا نقف حنظل الشريان
قد أراني هناك حَقَّ مكينـ	عند ذي التاج مقعدي ومكاني

فقال أتعرف هذه المنازل؟ قلت: لا. قال: هذه منازلنا في ملكنا بأكناف دمشق، وهذا شعر ابن الفريعة حسان بن ثابت. قلت: أما إنه مضرور البصر كبير السن. قال: يا جارية هاتي. فأتته بخمسة دنانير وخمسة أثواب من الديباج فقال: ادفع هذا إلى حسان وأقرئه مني السلام. ثم راودني على مثلها فأبيت، فبكى ثم قال

وحاصل القول في الغناء أنه كلام مقتبس من الشعر، ويتمشى على طريقة الشعر، كما قال النبي ﷺ في الشعر: «إنه كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح»^(١) وهكذا الغناء، وقد قال رسول الله: «لَأَنْ يَمْتَلِيَّ جَوْفَ رَجُلٍ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَّ شِعْرًا» متفق عليه. وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً».

وكان النبي ﷺ ينصب لحسان بن ثابت منبرًا في المسجد ينافح فيه عن الله ورسوله، ويقول: «اهجهم يا حسان، فإن شعرك أشد عليهم من رشق النبل»^(٢)، والله تعالى يقول:

لجواريه: أبكينني فوضعن عيدانهن وأنشأن يقلن قوله: تنصرت الأشراف من عار لطمه... إلخ. ثم بكى وبكيت معه حتى رأيت دموعه تجول على لحيته كأنها اللؤلؤ، ثم سلمت عليه وانصرفت. فلما قدمت على عمر سألتني عن هرقل وجبله فقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها، فقال أورايت جبله يشرب الخمر؟ قلت: نعم. قال: أبعده الله، تعجل فانية اشتراها بباقية فما ربحت تجارتها، فهل سرح معك شيئًا؟ قلت: سرح إلى حسان خمسمائة دينار وخمسة أثواب ديباج. فقال: هاتها. وبعث إلى حسان فأقبل يقوده فائده حتى دنا فسلم، وقال: يا أمير المؤمنين إني لأجد أرواح آل جفنة. فقال عمر رضي الله عنه: قد نزع الله تبارك وتعالى لك منه على رغم أنفه وآتاك بمعونة. فانصرف عنه وهو يقول:

لم يغذهم أبأؤهم باللوم	إن ابن جفنة من بقية معشر
كلا ولا متنصراً بالروم	لم ينسني بالشام إذ هو ربهما
إلا كبعض عطية المذموم	يعطى الجزيل ولا يراه عنده
وسقى فرواني من الخرطوم	وأتيته يوماً فقرب مجلسي

فقال له رجل: أتذكر قومًا كانوا ملوكًا فأبادهم الله وأفناهم؟! فقال: ممن الرجل؟ قال: مني. قال: أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله ﷺ لطوقتك طوق الحمامة. وقال للرجل الذي جاء من عند جبله: ما كان خليلي ليخل بي، فما قال؟ قال: قال لي: إن وجدته حيًّا فادفعها إليه، وإن وجدته ميتًا فاطرح الثياب على قبره وابتع بهذه الدنانير بُدْنًا فانحرها على قبره. فقال حسان: ليتك وجدنتني ميتًا ففعلت ذلك بي.

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى من حديث عائشة.

(٢) أخرجه مسلم من حديث عائشة.

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَتَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾
[الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

فالشعر بما أنه يُمدح من جهة أحياناً ويذم أحياناً فكذلك الغناء نفس الشيء، والأصل فيه الإباحة، لكن بعض العوام يغلطون في إباحته، ويغالون بالقول بتحريمه عندما يسمعون أن رجلاً من الذين يدعون أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر سمع رجلاً يغني وهو يعمل عند السواني - أي الإبل التي يعمل عليها قبل حفر الآبار بالآلات - فلما سمع الغناء نزل عليه في ناحية عمله وأخذ يضربه ضرباً شنيعاً حتى فقأ عينه، وما فعله هذا فإنه عين المنكر البعيد عن المعروف، وفي هذا الزمان وفي بعض البلدان نجد من يعيب على الناس ضرب الدف في العرس، وهذا من نتيجة الجهل، فإن ضرب الدف والغناء في العرس سنة، لقول النبي ﷺ: «فَرَقَ مَا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ بِالْذَّفِّ»^(١). وقال: «أعلنوا النكاح واضربوا فيه بالدف»^(٢) ولما جهزت عائشة ابنة يتيمة عندها إلى زوجها سألتها رسول الله: «كيف صنعتهم؟» فقالت: سلمناها إلى زوجها، ودعونا لها بالبركة، ثم رجعنا. فقال: «هلاً استصحبتم معكم دُفًّا فَإِنَّ الْأَنْصَارَ يَعْجَبُهُمُ اللَّهُو، وقلتم:

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ	وَحْيَانَا وَحْيَاكُمْ
وَلَوْلَا الذَّهَبُ الْأَحْمَرُ	رَوَّمَا حَلَّتْ بِوَادِيكُمْ
وَلَوْلَا الْحَنْطَةُ السَّمْرَا	لَمَا سَمَنْتَ عَذَارِيكُمْ

فهذا كله من الشعر المباح، أو من الغناء المباح، وحسبك إجازة الرسول ﷺ له. وقد أدخلت الصوفية الغناء في ضمن الزهديات، فكانوا يرقصون عند سماعه ويتساقطون، وهم

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث محمد بن حاطب.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث عائشة.

الذين عنى الشاعر بقوله:

تُلي الكتاب فأطرقوا لا خيفة لكنّه إطراقٍ ساهٍ لاهي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا تالله ما رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمة شادن فمتى رأيت عبادة بملاهي

فهؤلاء من الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً؛ لأنها لا تجتمع محبة الله وعبادته وشكره وذكره مع محبة الغناء والرقص والتساقط من وجدته، كما قيل:

حب القران وحب ألحان الغنا في قلب عبد ليس يجتمعان

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنه وإن نقل عن أهل المدينة وغيرهم استعمالهم للغناء واستحبابهم له فلم يقل أحد من علمائهم أنه مستحب في الدين ومختار في الشرع أصلاً، بل كان فاعل ذلك يرى مع ذلك كراهته، وأن تركه أفضل، أو يرى أنه من الذنوب، وغايته أن يطلب سلامته من الإثم، أو يراه مباحاً.

أما الغناء الذي يتمحض في الزهد أي لا يفضي إلى الوجد ولا الرقص ولا التساقط من أجله فهذا لا بأس به كقولهم:

يا غاديّا في غفلة ورائحا إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخاف موقفا يستنطق الله به الجوارحا
يا عجباً منك وأنت مبصر كيف تجنبت الطريق الواضحا

وسأل الإمام أحمد رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أي شيء تقول فيها؟ فقال: مثل أي شيء. قال: يقولون:

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني
وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تآتيني

فقال: فدخل بيته ورد الباب، فسمعت نحيبه من داخل البيت يردد وهو يقول هذه

الأشعار. ومثله الغناء الذي يهيج الحزن ويدعو إلى الندب وتعداد محاسن الميت، فهو عين النياحة المحرمة، ولا يوجد مثل هذا المكروه في زماننا أو بلداننا.

وسُمي الغناء غناءً من أجل تحسين الصوت به، كما ورد في الحديث عن أبي هريرة «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِالْقُرْآنِ» رواه البخاري، ومثله عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ - أَيْ اسْتَمَعَ - مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ». متفق عليه.

ولما استمع النبي ﷺ إلى أبي موسى الأشعري أعجبته قراءته، وقال: «لَقَدْ أَوْتِيَ أَبُو مُوسَى مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»^(١) وقد قيل:

تغنَّ بالشعر إذا ما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وصنف أبو الفرج الأصبهاني كتاباً سماه الأغاني وهو كتاب واسع العلم والمعرفة، يشتمل على فنون من التاريخ والسير وسائر العلوم المختلفة، لكن تسميته بالأغاني حطت من قدره عند الناس، لكون أكثر الناس يعتقدون التحريم للأغاني كلها تقليداً بدون بصيرة وبدون فرق بين النافع والضار. وطريقة أبي الفرج الأصبهاني في كتابه أنه يأخذ بيتاً أو بيتين فيجعلهما ميزاناً للغناء، وربما ضربوا الدفوف على التغني بهما أو بأحدهما، والغناء على إطلاقه يشتمل على النافع وعلى الضار، مثل ما قال النبي ﷺ في الشعر: «إنه كلام، حسنه حسن وقبيحه قبيح»^(٢).

وقال العلامة ابن الجوزي: اعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين: أحدهما: أنه يلهي القلب عن الذكر والصلاة وعن التفكير في عظمة الله والقيام بخدمته، والثاني: يميل صاحبه إلى اللذات العاجلة التي تدعو إلى استيفائها من جميع الشهوات الحسية وأعظمها النكاح.

فهذا هو الغناء المذموم، لكن قسماً منه وهو الأكثر مباح، وهو غناء الحدادة، وغناء جيوش الغزو والمبارزين في القتال مما يجعلهم يندفعون بداعي الشوق والغناء إلى المبارزة والتضحية

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى من حديث عائشة.

بالنفس والنفيس دون الدين والوطن، وهذا مما لا شك في إباحته، وقد كان للنبي ﷺ حادٍ يحدو بالجيوش بغنائه فيشتد سيرها تبعاً لصوته حتى يطأ بعضها بعضاً من التزاحم، كله تبعاً لرقعة صوته بالغناء، حتى قال النبي ﷺ لحاديه: «يَا أُجَشَّةُ لَا تَكْصِرِ الْقَوَارِيرَ»^(١). يعني النساء.

والنبي ﷺ كان رحب الصدر لسماع الشعر والغناء أحياناً كما ثبت «عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ رَدِفْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ «هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمِّيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْئًا». قُلْتُ نَعَمْ قَالَ «هَيْه». فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ «هَيْه». ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ «هَيْه». حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ». رواه مسلم.

ومثله حين أرى عائشة لعب الحبشة وكانوا يلعبون بحراهم، وكان يقول لها: «حسبك» وهي تقول: أمهلني أنظر إليهم. وذلك في يوم عيد، ثم قال: «لَتَعْلَمَ يَهُودُ أَنْ فِي دِينِنَا سَعَةٌ» أو قال: «فُسْحَةٌ»^(٢)، ومثله دخول أبي بكر على عائشة في بيتها وعندها جوارٍ يضربن بالدف فنهرهن أبو بكر وقال: مزمارة الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فرفع رسول الله ﷺ رأسه وكان مضطجعاً وقال: «دَعَهَا يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ»^(٣).

والغناء على إطلاقه يحث على الشجاعة والإقدام وعلى الكرم، ويساعد على مزاولة الأعمال الثقيلة بحيث لا يصيب من يزاؤها مس التعب وقد قيل:

ولولا خِلالِ سَنها الشعر ما درى بغاة الندى من أين تؤتى المكارم

وحسبك إنشاد كعب بن زهير في عروسه، وكان النبي ﷺ قد أظهر قتله، فنزل ليلاً عند رجل من الأنصار وشهد صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، وبعد الصلاة جلس بين يدي رسول الله، ثم قال: يا رسول الله أرأيت إن جاءك كعب بن زهير تائباً نادماً أكنت تقبل منه؟ قال: «نعم»، ثم قال: أنا كعب بن زهير، وقد قلت قصيدة أستأذنك في سماعها. فقال: «قل». فأنشد قصيدته

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس.

(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة.

(٣) متفق عليه من حديث عائشة.

الشهيرة وهي:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يُفدَ مكبول
وسعاد هي عروس الشاعر.

وهي تدل بفحواها - مع محبته لها - على أن رسول الله ﷺ أحب وأجل منها، وقد قال أهل الأدب إذا كان مدح فالنسيب مقدم؛ ومعنى بانت سعاد: فارقت، وقلبي اليوم متبول: أي هيّمه الحب، متيم، أي: مُعَبَّد، إثرها: أي في طلبها، لم يُفدَ مكبول أي: أسير الحب لم تفده بوصول ثم قال:

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

إن من عادة الأعراب إذا انتقلوا من منزل إلى منزل آخر فإن المرأة تتجمل غاية التجمل، ومنه تكحيل عينيها لعلها أن الناس سينظرون إليها، ثم قال:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يُشْتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول^(١)

ثم ليتأمل العاقل وصف هذا الشاعر لزوجته أو لعروسه بمسمع من رسول الله ﷺ وقد أجازها، فوصفها بأنها هيفاء، أي ضامرة البطن ويعدونها من محاسن المرأة ثم قال: عجزاء مدبرة، فوصفها بكبر عجيزتها لكون الرجل قصاب يجب الحسن والسمن، لا يُشْتكى منها قصر، لكون شر النساء القصار الحباتر، ولا طول لكون المرأة إذا تجاوزت الطول المعتاد فإنها تكون مشوهة، ثم وصف ثغرها فقال: تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت، فالعوارض هي: البراطم، والظلم بالفتح هو: ماء يخرج من أسنان الأبقار، ووصف حلاوته بهاء المطر الممزوج بالراح، أي الخمر، أي من شدة حلاوته، ولم ينكر النبي ﷺ عليه شيئاً من ذلك:

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى من حديث عبد الرحمن بن كعب بن زهير.

فعانق وقبل وارتشف من رضاها فعدلك عن ظلم الحبيب هو الظلم^(١)

والحاصل أن الغناء مباح، وأخذ الأجرة عليه مباح، وكذلك ضرب الدف والحذاء كل هذا من هو الدنيا المباح في الأصل، وسمع من ابن عمر عند منصرفه من عرفة يقول:

إليك تعدو قلقتاً وضمينها معترضاً في بطنها جنيئها

مخالفاً دين نصارى دينها

ونظير هذا أن رجلاً من سكنة الإمارات زار حبيته، وركب على ناقته، فجعلت الناقة تتلفت

إلى الخلف وتحن إلى مألفها وهو يُلحُّ عليها بالضرب لتسير إلى الأمام جهة محبوبته وأنشد:

هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى وإني وإياها لـمختلفان

وقد وجهت امرأة أرملة سؤالاً قائلة: إنني امرأة مات عني زوجي ولي منه عدد من العيال،

وليس لي من كسب إلا من الغناء وضرب الدف، فهل كسبي عليهم حلال أو حرام؟.

فالجواب: إننا متى قلنا بإباحة الغناء فإننا نقول بإباحة ما يترتب عليه من الأجرة، إذ لا

يمكن أن يبذل أمثال هؤلاء نفعهم فيه بدون عوض، والنبي ﷺ قد أثاب بعض الشعراء، وقال:

«يَأْتُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُونِي وَيَأْتِي اللَّهَ لِي الْبُحْلُ»^(٢)، كما أثاب وفد بني تميم حين قدموا عليه وفيهم

شعراؤهم ومنهم عطار بن حاجب التميمي في أشرف من بني تميم، جاؤوا في أسرى بني تميم

الذين أخذتهم سرية عيينة بن حصن الفزاري فقالوا: جئنا لنفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا.

قال: «أذنت لخطيبكم»، فقام عطار فخطب فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: «قم

فأجب الرجل»، فقام ثابت فخطب وأجابه، وقام الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلاحي يعادلنا منا المملوك وفينا تنصب البيع

وكم قسرنا من الأجياد كلهم عند النهاب وفضل العز يُتبع

(١) وهذا البيت ليس من قصيدة (بانت سعاد) وإنما دخل فيها دخول التفسير لها.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک من حديث عمر.

ونحن يُطعم عند القحط مَطْعَمُنَا
من الشواء إذا لم يؤنس القزع
إلى أن قال:

إنا أئينا ولم يَأب لنا أحد
إنا كذلك عند الفخر نرتفع
في أبيات ذكرها، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «قم فأجب الرجل»، فقام، فقال على
البدية:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنناً للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله وكل الخير يُصطنع
قوم إذا حاربوا ضرُّوا عدوهمو
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة
إن كان في الناس سباقون بعدهمو
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
إلى أن قال:

لا يفخرون إذا نالوا عدوهمو
وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع
فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره
أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ
فأحسن جوائزهم.

وهذا مما يدل على إباحة ما تكتسبه المرأة على غنائها والدف فيه، فلا محذور في إباحة ما
يتفضل به أهل الفضل عليها، وللفقراء من زاد الكرام نصيب، والنبى ﷺ قال: «ما جاءك من
هَذَا الْمَالِ وَأَنْتِ عَيْرٌ مُشْرِفٌ وَلَا سَائِلٌ فَخُذْهُ، وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ»^(١)، وحسبنا إجازة
رسول الله وتفضله على هؤلاء على شعرهم مع كونه في محض الفخر بأنسابهم، وقد نهى ﷺ عن
الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب، وقد قال: «مَا أُحِبُّ أَنْ أُحَدَّأَ لِي ذَهَبًا يَأْتِي عَنِّي لَيْلَةً أَوْ

(١) متفق عليه من حديث عمر.

ثَلَاثٌ عِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا أَرَصِدُهُ لِدَيْنٍ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا»^(١)،
 أي عن يمينه وشماله ومن خلفه، لكون البخل هو من أبغض ما يتخلق به الرجل عند رسول الله ﷺ،
 وقد قال النبي ﷺ لبني ساعدة: «من سيدكم؟» قالوا: الجد^(٢) بن قيس على أننا نبخله، قال ﷺ:
 «وأي داء أدوى من البخل، بل سيدكم عمرو بن الجموح»^(٣) لهذا قال شاعرهم:

وقال رسول الله والحق قوله	لمن قال منا من تُسمون سيديا
فقلنا له الجد بن قيس على التي	نُبخله فيها وإن كان أسودا
فتى ما تخطى خطوة لدنية	ولا باسط يومًا إلى سوءة يدا
فسود عمرو بن الجموح لجوده	وُحِقَ لعمرو بالندى أن يُسودا
إذا جاءه السؤال أوهب ماله	وقال خذوه إنه راجع غدا
فلو كنت يا جد بن قيس على التي	على مثلها عمرو لكنت المسودا

فهذه المرأة الأرملة التي مات عنها زوجها وعندها عدد من العيال وتسأل عن كسبها
 بالغناء والدف إذ لا كسب لها غير ذلك، فنقول: إن كسبها بهذه الطريقة حلال بلا شك إذا لم
 تتعمد الغناء الذي يثير الغرائز إلى الفجور وشرب الخمر وما هو بمعنى ذلك، إذ الأصل
 الإباحة، وقد تناول أساطين العلماء الأحاديث التي يزعمون بأنها تحرم الغناء فأخضعوها للطعن،
 وأنها كلها ليست بصحيحة ولا صريحة في التحريم، ومن قال ذلك الإمام ابن العربي إمام
 المالكية، وابن حزم، والغزالي في إحياء علوم الدين.

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي ذر.

(٢) الجد بن قيس هو الذي اختفى خلف بعيره الأحمر عند بيعة الرضوان وقال لرسول الله ﷺ عند غزوة تبوك:

إنني إذا رأيت بنات الأصفر لم أستطع الصبر عنهن فائذن لي في القعود، فأذن له، وأنزل الله فيه ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ

يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا تَفْتِيحَ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ [التوبة: ٤٩].

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة.

أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]. فاستنبطوا من هذه الآية تحريم الغناء ونسبوا القول إلى ابن عباس وابن مسعود، فإن هذا الاستنباط هو اجتهاد من بعض المفسرين وليس بنص قاطع على ما ذكروا، وليس بنص مرفوع إلى النبي ﷺ حتى يجب المصير إليه بالدليل القاطع والبرهان الساطع. ومجرد الغناء الخالي عن الخنا لا يهتمل التفسير بهذا لكون الآية دلت على من يشتري لهو الحديث ليضل به عن سبيل الله، وهذا يُحمل على من تصدى إلى الكتابة أو شراء الكتب المشتملة على الإلحاد والزندقة ليضل بها الناس عن الحق، لكون الجهد بالإلحاد والزندقة ونشره هو الغاية في إفساد البلاد وأخلاق العباد من كونهم يخرجون بسببه عن الصراط المستقيم ويتبعون طريقة المغضوب عليهم والضالين، خصوصاً إذا انضم إلى هذا الإلحاد والزندقة كونه يتخذ آيات الله هزواً، فإن الاستهزاء بالله وبكتابه ورسوله والدين كفرٌ بالله عز وجل ﴿...قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٦٥-٦٦]. مما يدل على أن هؤلاء كفروا بمجرد استهزائهم بعد إيمانهم، وأن مجرد الاستهزاء أحبط أعمالهم وأحقهم بالكفار، فما بالك بالمستهزئين الذين ليس معهم إيمان فإنهم أحق بالكفر، وهذا التفسير بما ذكرنا هو الذي ينطبق عليه معنى الآية، وهم الذين يصابون بالخزي في الدنيا حتى يغطي أقرابهم وجوههم عند ذكرهم، ثم يخلد لهم الذكر الخامل والسُّمعة السيئة.

﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ يشمل كل ما يتلهى به الإنسان في حياته، وقد سمى الله الدنيا لعباً ولهواً، فالمسابقة بالأقدام وبالإبل وبالخيل هو من لهو الحديث، وكذا المصارعة بالأجسام، والسباحة، والرماية، وكذا الغناء وضرب الدف عليه كل هذا من اللهو المباح، ومثله ملاعبة الرجل زوجته، وتأديبه فرسه، إذا لم يخرج عن حدود الحق إلى الباطل، وأشرها نشر الإلحاد والزندقة التي تنطبع في أخلاق أكثر العامة كما قيل:

فيا جاهلُ اعلم أنني غير جاحد

إذا كنت من فرط السفاه معطلاً

وأعلم أن الأمر في يد واحد

أخاف من الله العقوبة آجلاً

فإني رأيت الملحنين تعودهم ندامتهم عند الأكف اللواحد
ونختم الكلام بكلمة كريمة ونصيحة حكيمة فيما يتعلق بالغناء والمعازف وسائر
الملاهي، فنقول:

أولاً: إن الغناء في هذا العصر ألفاظه بذئته، سخيفة ينجل العاقل من سماعها فضلاً عن
ترديدها أو التغني بها.

ثانياً: إن العالم كله اليوم غارق في أمواج بحار الموسيقى والغناء فأبي خير جناه الناس من
ذلك؟ ثم أليس استغراق المطروب في طربه يشل نشاطه ويقضي على همته واندفاعه إلى العمل
ويغرق قلبه في الغفلة.

ثالثاً: لو أن أجهزة الأعلام سخرت هذا الوقت المهودور لتعليم الناس الخير وحملهم على
فعله ألا يكون ذلك أصلح للناس وأنفع؟!.

رابعاً: إن هذا الذي يسمى اليوم بالفن من غناء ورقص وتمثيل وعزف لم يكن في عصر من
العصور أكثر انتشاراً وضرراً منه في عصرنا.. فإذا يقدم المغنون والمغنيات لأمتهم من الخير؟!
وماذا تنفع التمثيليات والمسرحيات التي تدعى الإصلاح وإثمها أكبر من نفعها؟!.

حديث ليلى الأخيلىة مع الحجاج بن يوسف

هذه المحاوراة الواقعة بين الحجاج وبين ليلى الأخيلىة تعطي الطلاب والطالبات شيئاً من
شرف أخلاق القدامى، وكون حبهم وعشقهم محفوفاً بالعفاف والإحسان، فهم يعدون النكاح
الواقع بين المحبِّ ومحبوبته أنه رذالة ونذالة، وقد قيل: إذا نكح الحبُّ فسد. ولهذا قالت ليلى
الأخيلىة:

وذي حاجةٍ قلناله لا تبخُ بها فليس إليها ما حيت سبيل

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب و خليل

بخلاف المحبين من أهل هذا العصر، فإن غاية حب أحدهم لمعشوقته هو غزو ما سفل من خلقها وأخلاقها، لهذا لا تدوم المحبة بينهما لكون الرجل يعرض له من يرغب في حبه فينصرم حبله عن معشوقته، كما أن المرأة قد يعرض لها من ترغب في حبه فتصرف عن معشوقها لعدم استدامة صلة ما بينهما، كما قيل:

علقتها عرضاً وعلقت رجلاً غيري وعلق أخرى غيرها الرجل

قال أبو بكر بن الأنباري: حدثني أبي، قال: أخبرنا أحمد بن عبيد عن أبي الحسن المدائني عن حدثه عن مولى لعنيسة بن سعيد بن العاصي قال: كنت أدخل مع عنيسة بن سعيد بن العاصي إذا دخل على الحجاج، فدخل يوماً فدخلت إليهما وليس عند الحجاج أحد إلا عنيسة، فأقعدي فجاء الحجاج بطبق فيه رطب، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني به، ثم جيء بطبق آخر حتى كثرت الأطباق، وجعل لا يأتون بشيء إلا جاءني منه شيء حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهما، ثم جاء الحاجب فقال: امرأة بالباب، فقال الحجاج: أدخلها. فدخلت، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنه قد أصابت الأرض، فجاءت حتى قعدت بين يديه، فنظرت فإذا امرأة قد أسنت حسنة الخلق، ومعها جاريتان، وإذا هي ليلي الأخيلية، فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له، فقال لها: يا ليلي ما أتى بك؟ فقالت: إحلاف النجوم، وقلة الغيوم، وقلب البرد، وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرغد. فقال لها: صفي لنا الفجاج. فقالت: فالفجاج مغبرة، والأرض مقشعرة، والمبرك معتل، وذو العيال مختل، والهالك للقل، والناس مستنون رحمة الله يرجون، وأصابتنا سنون محففة مبلطة لم تدع لنا هبجاً ولا ربجاً ولا عافطة ولا نافطة، أذهبت الأموال، ومزقت الرجال، وأهلكت العيال. ثم قالت: إني قلت في الأمير قولاً.

قال: هات. فأنشأت تقول:

— منايا بكف الله حيث يراها

أحجاج لا يُفَلِّسُ سلاحك إنما الـ

ولا الله يُعطي للعصاة مُناها

أحجاج لا تُعطي العصاة مُناهم

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة
شفاها من الداء العُضال الذي بها
سقاها فرواها بشرب سجاله
إذا سمع الحجاج رزء كتيبة
أعدّها مسمومة فارسية
فما ولد الأبكارُ والعون مثله
تتبّع أقصى دائها فشفاهها
غلامٌ إذا هزّ القنأة سقاها
دماء رجال حيث مال حشاها
أعدّها قبل النزول قراها
بأيدي رجال يجلّبون صراها
بيحر ولا أرض يجفّ نراها

قال: فلما قالت هذا البيت قال الحجاج: قاتلها الله، والله ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق غيرها. ثم التفت إلى عنبة بن سعيد فقال: والله إني لأعد للأمر عسى ألا يكون أبداً. ثم التفت إليها فقال: حسبك. قالت: إني قد قلت أكثر من هذا. قال: حسبك. ويحك حسبك. ثم قال: يا غلام اذهب إلى فلان فقل له اقطع لسانها. فذهب بها، فقال له: يقول لك الأمير اقطع لسانها. قال: فأمر بإحضار الحجاج، فالتفت إليه، فقالت: ثكلتك أمك، أما سمعت ما قال؟ إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة. فبعث إليه يستثبته، فاستشاط الحجاج غضباً، وهمم بقطع لسانه، وقال: ارددها. فلما دخلت عليه قالت: كاد وأمانة الله يقطع مقولي. ثم أنشأت تقول:

حجاج أنت الذي ما فوقه أحدٌ
حجاج أنت شهابُ الحرب إن لقحت
إلا الخليفةُ والمستغفرُ الصمدُ
وأنت للناس نورٌ في الدُّجى يقُدُّ

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيها الأمير، إلا أننا لم نر قط أفصح ولا أحسن محاوره، ولا أملح وجهاً، ولا أرصن شعراً منها. فقال: هذه ليل الأخيلىة التي ماتت توبة الخفاجي من حبها. ثم التفت إليها فقال: أنشدينا يا ليلي بعض ما قال فيك توبة. قالت: نعم أيها الأمير، هو الذي يقول:

وهل تبكين ليلي إذا مُتُّ قبلها
وقام على قبري النساء النوائح
كما لو أصاب الموت ليلي بكيّتها
وجاد لها دمع من العين سافح

وأغبط من ليلى بما لا أناله
بلى كل ما قرّت به العين طائح
ولو أن ليلى الأخيلىة سلمت
عليّ ودوني جندل وصفائح
لسلّمت تسليم البشاشة أو زقًا
إليها صدىً من جانب القبر صائح

فقال: زيدينا من شعره يا ليلى. فقالت: هو الذي يقول:

حمامة بطن الوادين ترنمي
سقاك من الغر الغوادي مطيرها
أبيني لنا لازال ريشك ناعماً
ولازلت في خضراء غصّ نصيرها
وكنتُ إذا ما زرتُ ليلى تبرّعت
فقد رابني منها الغداة سفورُها
وقد رابني منها صدودٌ رأيتُه
وإعراضها عن حاجتي وبسورُها
وأشرف بالقور اليفاع لعنني
أرى نار ليلى أو يراني بصيرها
يقول رجال لا يضيرك نأيمها
بلى قد يضير العين أن تكثر البكا
وقد زعمت ليلى بأني فاجر
وئمنع منها نومها وسرورُها
لنفسى تقاها أو عليها فجورُها

فقال الحجاج: ما الذي رابه من سفورك؟ فقالت: أيها الأمير كان يلمّ بي كثيرًا فأرسل إليّ يومًا أي آتيك، وفطن الحيّ، فأرصدوا له، فلما أتاني سفرت عن وجهي، فعلم أن ذلك لشر، فلم يزد على التسليم والرجوع. فقال: لله درك، فهل رأيت منه شيئًا تكرهينه؟ فقالت: لا والله الذي أسأله أن يصلحك، غير أنه قال مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر، فأنشأت أقول:

وذي حاجة قلنا له لا تُبْخ بها
فليس إليها ما حيت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه
وأنت لأخرى صاحب و خليل

فلا والله الذي أسأله أن يصلحك ما رأيت منه شيئًا حتى فرق الموت بيني وبينه. قال: ثم مه، قالت: ثم لم يلبث أن خرج في غزاة له فأوصى ابن عم له إذا أتيت الحاضر من بني عبادة فناد بأعلى صوتك:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة من الدَّهر لا يسرى إليَّ خيالها
أقول:

وعنه عفا ربِّي وأحسن حاله فعزت علينا حاجة لا ينالها
قال: ثم مه قالت: ثم لم يلبث أن مات، فأتانا نعيه، فقال: أنشدنا بعض مرثيك فيه، فأنشدت:
لتبك العذارى من خفاجة نسوة بماء شؤون العبرة المتحدّر
قال لها: فأنشدينا. فأنشدته:

كأن فتى الفتيان توبة لم يُنخ قلائص يفحصن الحصى بالكرار

فلما فرغت من القصيدة قال محسن الفقعسي - وكان من جلساء الحجاج -: من الذي تقول هذا فيه فوالله إني لأظنها كاذبة. فنظرت إليه، ثم قالت: أيها الأمير، إن هذا القائل لو رأى توبة لسره ألا تكون في داره عذراء إلا هي حامل منه. فقال الحجاج: هذا وأبيك الجواب، وقد كنت عنه غنيا. ثم قال لها: سلي يا ليلي تُعط. قالت: أعط فمثلك أعطى فأحسن. قال: لك عشرون. قالت: زد فمثلك زاد فأجمل. قال: لك أربعون. قالت: زد فمثلك زاد فأكمل. قال لك: ثمانون. قالت: زد فمثلك زاد فتمم. قال: لك مائة واعلمي أنها غنم. قالت: معاذ الله أيها الأمير أنت أجود جوذاً، وأمجد مجداً، وأورى زندا من أن تجعلها غنماً. قال: فما هي ويحك يا ليلي. قالت: مائة من الإبل برعاتها. فأمر لها بها، ثم قال: ألك حاجة بعدها. قالت: تدفع إلى النابغة الجعدي. قال: قد فعلت. وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك، فخرج هارباً عائداً بعبد الملك، فأتبعته إلى الشام، فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان، فأتبعته البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة، فمات بقومس ويقال بحلوان.